

خطائص لغة القصيدة الشعبية الجزائرية المعاصرة :

"منطقة البيض أنموذجا"

الأستاذ: طالبى عبد القادر
المركز الجامعى بالبيض - الجزائر

لكل شاعر لغة يرسم بكلماتها ما يتحرك فى أعماقه من أحاسيس، وما يولد فى خياله من صور، فىصبح الشعر لوحات من الكلمات تلامس ألوانها الجذابة وأشكالها الفتانة نقاط إبداع، لامتناهى.

الشاعر الشعبى كغيره من الشعراء مبدع له تجربة الشخصية ولغته الخاصة التى يبلغ بها إلى العالم رسالة الإنسان البسيط، يعكس صورة الإنسانية المتواضعة، التى تأتي أن تتخلى عن دراسة الإحساس النبيل "الآن الألفاظ عامة"... ليست وعاء لنقل الأفكار فحسب ولكنها وعاء لكم كبير من الأحاسيس والمشاعر والخلال تختزل الماضى وتعبر عن الحاضر وتكتشف المستقبل إنها تتطوي على تراث الأمم والحضارات " ¹.

إن لغة الشعر الشعبى تجتمع مع لغة سائر أشكال التعبير فى الأدبى الشعبى فى كونها لغة تمتاز بصعوبة وصفها "...ولكنها على وجه القطع ليست غامضة وعلى أساس الترجيح فى راعت السهولة فى إنشائها" ² ولا يفهم من هذا الكلام أن لغة الشعر الشعبى يمكن أن تشابه لغة الحكاية أو الأسطورة أو المثل لأن " لغة الشعر و الغناء تختلف عن اللغة العادية لغة الحديث و التفاهم، مهما بلغت الجماعة اللغوية من بدائية أو تحضر " ³

الشاعر الشعبى مهما بلغت لغته من بساطة والتصاق بمعجم الألفاظ الشعبية المتداولة فى بيئته، يحاول أن يرقى بلغة القصيدة إلى مستويات ترتفع عن اللغة العادية وهو ما دعا إليه أرسطو قديما، حينما قال " إن معجم الكاتب ينبغى أن يكون واضحا ولكن ينبغى أن يرتفع فى نفس الوقت عن المستوى العادى .. " ⁴

ولا يتحقق هذا الأمر إلا بمخالفة اللغة العادية لأنه كما يقول أرسطو - دائما - عن طريق مخالفة المصطلحات العادية تكتسب نوعا من الامتياز" فلا بد للكلمة في الشعر أن تعلو على ذاتها وأن تزخر بأكثر مما تعد به وأن تشير إلى أكثر مما تقول " ⁵

إن هذه الأهمية التي نوليها للغة الشعر ،أشار إليها القدماء و المحدثون الذين رأوا" أن الدخول إلى عالم الشعر من خلال لغته يبدو اقرب إلى جوهر الشعر الغنائي على نحو خاص وإذا كان شعرنا العربي ينتمي في مجمله إلى هذا اللون الأخير ، فان أبحاث لغة الشعر تبدو حميمية الصلة به، والذي يؤكد هذا أن النقد العربي القديم انتهى في قمة تطوره إلى اعتناق نظرية لغوية خالصة في تفسير الشعر،وهي نظرية النظم التي أخذ بها الجرجاني في القرن الخامس هجري أي بعد فترة طويلة من محاولات النقاد مع مناهج أخرى لم تكن لغوية خاصة وان كان دور اللغة فيها واضحا " ⁶

من خلال تأملنا في القصائد الشعبية التي بحوزتنا لشعراء شعبيين من منطقة البيض ودراسة لغتها ،تبين أن السمة البدوية الطاغية على القصيدة الشعبية في المنطقة ألقت بظلالها على لغة الشعر، من خلال الاتصال الوثيق باللغة العربية في مجمل ألفاظها ،مما يجعلها قوية موحية وفي هذا السياق يحضرنا رأي الأستاذ رابح بونار في لغة الشعر البدوي : "يبدو من دراستنا للآثار الشعرية الشعبية أن لغة الشعر البدوي هي أقوى وأغنى من لغة الشعر الحضري ألفاظها الفصيحة التي تمت إلى الفصحى بنسب قريب كثرة الحكم والأمثالوضروب التشبيه والاستعارة التي تتخلل أبياتها قد اقتبسوها من القرآن الكريم والحديث والفقه وبعض القصائد الفصيحة التي درسوها أو حفظوها بالرواية و السماع" ⁷

ونشير هنا إلى أن لغة الشعر الشعبي المعاصر في هذه المنطقة مازالت تحافظ على سماتها العربية، رغم ما اعترى لغة التخاطب اليومي من تغيرات كبيرة من دخول الألفاظ غربية و ألفاظ من لهجات محلية لمناطق من الغرب و الشرق الجزائري ، و السبب في هذا التمسك بالسمات العربية للغة الشعر الشعبي في هذه المنطقة هو طبيعتها المحافظة ،والنظام الاجتماعي القائم على نظام القبيلة و العرش الذي يرسخ الارتباط بالهوية و الاعتزاز بها .

التفاح ظاهرة تفرض حضورها في اللهجة المحلية لمنطقة البيض، فضلا عن حضورها في القصيدة الشعبية، التي تستمد معجمها اللغوي منها، لكنها في القصيدة الشعبية خاصة المعاصرة منها أكثر وضوحا وظهورا ويعد ذلك في نظرنا إلى :

أ/ الطبيعة الاجتماعية و الثقافية لمنطقة البيض.

ب/ تمتع الشعراء الشعبيين المعاصرين بمستويات ثقافية وتعليمية متفاوتة مما يجعل حضور الثقافة الرسمية في أشعارهم أمرا مؤكدا سواء عن وعي أو دون وعي.

ج/ خصوصية القصيدة البدوية الغالبة على طبع الشعراء المحليين.

1- تشكيل اللفظ المتفاح عند شعراء البيض :

الحديث عن الألفاظ المتفاح في القصيدة الشعبية عند شعراء منطقة البيض يلزمنا النظر في كيفية تشكيلها وبنائها و بالعودة إلى مجموع القصائد المعتمد عليها في هذا البحث نجد أن الألفاظ المتفاح المستعملة تشكل بالطرق التالية:

1- الجانب الصوتي :

1-1/ تخفيف الهمزة وحذفها:

هذه الظاهرة تناولها القدماء و المحدثون في مؤلفاتهم وبحوثهم المتعلقة بالأصوات العربية و لهجات العرب، و أصبح معلوما لدى المتقدم والمتأخر منهم " .. أن الهمز كان خاصة من خصائص البدوية التي اشتهرت بها قبائل وسط الجزيرة العربية وشرقيها " تميم " وما جاورها وأن تخفيف الهمز كان خاصة حضرية امتازت بها لهجة القبائل في شمال الجزيرة وغربيها وقد ورد النص في كلام أبي زيد الأنصاري أن أهل الحجاز وهزيل وأهل مكة و المدينة لا ينبرون⁸

-بالعودة إلى القصائد الشعرية نجد مايلي :

أ/تخفيف الهمزة :

خفت الهمزة في كثير من الألفاظ لتسهيل النطق وأسير مثال على هذا لتجنب نبرها في بعض الكلمات مثل :

فأر ——— في قول الشاعر نور الدين مقدم في قصيدة تتبدل الأحوال⁹:

حتى الفار يجيك ما تعرفش منين لفرشات الزايخة ليها يعطب

البصيره راحت ابقاو العينين درك الناس اليوم فيها تتعجب

ب/ حذف الهمزة

حذفت الهمزة في كثير من الكلمات العربية لفصيحة أو المتفاحصة المستعملة في القصيدة الشعبية، كنوع من التخفيف والتسهيل خاصة بعد المد:

مثل: الأنبياء ————— الأنبياء

الأولياء ————— الأولياء

الياء ————— الياء

وهذا ما نجده في قصيدة "شاب الراس" للشاعر جلول جلجلي¹⁰:

أكتب جيم ولام واختمهم باليا ودير قبلهم باش تفهم جيم ولام

والصلاة عليك خير البرية صلاة ترضيه ومعاها سلام

وعلى آل البيت وعلى الأنبياء وجميع لي سار في نهج الإسلام

1-2- الإبدال

الإبدال لغة: "استبدال الشيء بغيره وبتدله به إذا أخذ مكانه"¹¹

وفي الاصطلاح : جعل حرف مكان حرف آخر مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة، ولا يفهم من هذا أنه عوض عنه فالاختلاف بين البديل و العوض لخصه صاحب الخصائص في قوله " جماع ما في هذا أن البديل أتية بالمبدل منه من العوض بالمعوض منه وإنما يقع البديل في موضع المبدل منه و العوض لا يلزم فيه ذلك....فالبديل أعم تصرف من العوض فكل عوض بديل وليس كل بديل عوضاً" ¹²

والإبدال في اللغة المستعملة في القصائد الشعبية المعاصرة في منطقة البيض يتجلى في عدة وجود منها:

أ/ إبدال الهمزة بالعين أو الواو

مثل القرآن ————— اللقوعات

يقول الشاعر البشير بوسماحة في قصيدة "دينار الغرور " ¹³

وذا دايراته في كسبه ماكانش ريال بين الزنق يتظولل ما كان من عبا بيه

ذا دايراته طالب فالقرعان جلجال وذا دايراته حتى الهدره تتلف عليه

ومثل : أذن ————— وذن

يقول نور الدين مقدم في قصيدة الحواق ¹⁴

قابن شعرك دايمن ليه اتزير فيه ما يعرف مشطه أولا يعرف ليدام

وامتعب مولاك يلوي وايدور حازم له وذنيه ما يسمع لكلام

ب-إبدال السين بالصاد

مثل راس ————— راص

يقول الشاعر جلجلي في قصيدة شاب الراس ¹⁵

شاب الراص وذرك تبياض اللحية ويا قلبي ما تلاتنا في الصغر مقام

صغرى كله ضاع من بين يديا وحتى كبرت ذرك يمشي كي لمنام

ج-إبدال القاف القریشية باليمينية :

يقول الشاعر جلول جيجلي :

واحد قال أدواه عند الأوليا واحد ثاني قال يشفيه الحجام

وأنيا من المرض درقوا عينيا او من الحمى أنقول راني في الحمام

د-إبدال القاف بالكاف :

ونجد هذا في الكلمات التي يتولى فيها حرف الكاف مع حرف التاء مثل :

قتل — كئل

وردت في كثير من القصائد الشعرية منها ما جاء في قصيدة "رثاء بوشريط للشاعر بوسماحة :

ياللي كتلت الرايس هاوين لقبال لا شرع لا بوقاضو راك تأكل عليه

1-3-الإقلاب :

القلب في اللغة تحويل الشيء عن وجهه....وقلبه حول ظهر لبطن¹⁶ وعند علماء

الأصوات " تقديم بعض أصوات الكلمة عن بعض لصعوبة تتابعه الأصلي على الذوق اللغوي

17،

ويظهر قلب الحروف في كثير من الكلمات مثل :

لعنة — نعة ونجدها في قصيدة بن حاحا يا " القمرى "

أو كما يحلو لبعض المهتمين بشعر بن حاحا عنوانها ب" رسالة إلى فلسطين و الدرة "جاء فيها:

عديان الرسول نبينا طه ياربي هذا ليهود زلزلهم

حبو يدو بلادنا يستقلوها في هذا الزمان صهيون تقدم

ذيك القصة فالكتوب قريناها هذا القوم يهود ربي ناعلم

2- التشكيل النحوي :

اللغة الشعرية في أغلب القصائد الشعبية لشعراء منطقة البيض مستمدة من معجم مفردات اللهجة المحلية و الملاحظ في صياغتها النحوية أن كمّا لا بأس به يميل إلى التفصح ومن أشكال صياغته نحويا :

2-1 إهمال الحركات الإعراب

إهمال حركات الأعرابية ظاهرة عامة في اللهجات العربية القديمة و الحديثة،

و الإهمال هنا لا نقصد به اللحن في اللغة المعروف؛ بل هو باختصار عدم تحقيق نطق الحركات الإعرابية للكلمات العربية، وهذه الظاهرة نجدها في لغة القصائد الشعرية لشعراء المنطقة البيض كثيرا ومثال ذلك ما جاء في قصيدة الشاعرة جودي ذهبية " طلّت شمسي " ¹⁸

طلّت شمسي كي صحى قيمي واقدّا ولمع نجمي في سمايا نوره زاد

وافتح وردي فرش أوراقه وندا وزهى فصلي حين باكر بالتوارد

كما نجدها ايضا في قصائد الشاعر حميدي بونوة مثل ما ورد في قصيدة الجزائر ¹⁹ :

الشعب الأبي كان متعذب مهموم تقتيل وتشريد هتكوا حرماته

من طبيعة الاستعمار حقدار وظلوم يفهم حوار الرصاص ولغاته

الملاحظ من هذه الأمثلة أن الألفاظ متقاصحة لا ينقصها إلا تحقيق الحركات الأعرابية فيغدو البيت أقرب إلى الفصيح منه إلى الشعبي.

2-2 اختزال الصيغ أو إطالتها :

أ/ اختزال الصيغ :

كثيرة هي الألفاظ الواردة في لغة القصائد الشعرية الشعبية التي يظن البعض أنها عامية، لكنها متفاصحة لها صلة بالعربية الفصحى، وما طرأ عليها هو اختزال للصيغ * مثل :

ما عندهش ما + عنده ← شيء

ما + (عند + هـ) + (ش - ي - ء)

يقول الشاعر مقدم نور الدين في قصيدة تتبدل لأحوال²⁰ :

سوق الدنيا يروح تقعد لكراتين يلعب بيها الريح و الصادق يكسب

لي ما عندهش القلب يموت سمين و العارف تلقاه شافي متعذب

ب - إطالة الصيغ :

هذه الظاهرة قديمة في لهجات العرب الفصيحة سماها ابن جني بـ "مطل الحركات" ²¹ ومن ذلك ما نجده في اسم الإشارة .

 - ذاك ← هـ ذاك

 هـ + ذ + ألف + ك
 ↓ ↓
 (ممدودة) (ممدودة)

3- استعمال الألفاظ المتفاصحة

يختلف شعراء منطقة البيض في استعمالهم للألفاظ المتفصحة باختلاف مستوياتهم التعليمية و الثقافية و البيئية التي يعيشون فيها (البدو - الحضر) ويمكن تصنيف هؤلاء الشعراء حسب استعمالهم للألفاظ المتفاصحة إلى فئتين :

الفئة الأولى :

هذه الفئة من الشعراء الشعبيين يكثر في شعرها استعمال الألفاظ المتفاصحة ومنها ويبرز فيها الشاعر : حميدي بونوة ،الشاعر : مقدم نور الدين ،الشاعرة جودي ذهبية هؤلاء الشعراء من أكثر شعراء المنطقة البيض استعمالا للألفاظ المتفاصحة في شعرهم كما هو مبين في الجدول التالي :

الشاعر	القصيدة	عدد الأبيات	عدد الألفاظ	عدد الألفاظ المتفاصحة	النسبة المئوية للألفاظ المتفاصحة	معدل استعمال الألفاظ المتفاصحة في البيت الواحد
حميدي بونوة	الجزائر	49	406	337	83%	07
مقدم نور الدين	تبدل الأحوال	34	272	146	53%	04
جودي ذهبية	طلت شمسي	30	254	163	64%	05

السبب الذي جعل نسب استعمال الألفاظ المتصافحة عن هؤلاء الشعراء عالية هي في نظرنا مقترنة بطبيعة الثقافة التي يتمتعون بها فالشيخ الحاج حميدي بونوة المعروف بتعلقه بالمدارس القرآنية و الثقافة الإسلامية جعلت لغة شعره خاضعة لهذا الجو الثقافي ، فلم يستطع النزول بها إلى اللغة العامية الدارجة أو حتى توظيف بعض الألفاظ البدوية المعروفة في المنطقة بل تركه هذا التشبع الثقافي في حالة صراع تملص من سلطة العربية الفصحى ، حتى وهو يبدع قصيدته الشعبية .

نفس الكلام ينطبق على الشاعر مقدم نور الدين ، فسلطة الثقافة الرسمية واستعمال اللغة العربية الفصيحة في التداول اليومي خاصة في حقل التدريس ، تبرر حضور الألفاظ المتصافحة بقوة وتجعل القصيدة تأبى أن يمر فيها بيت دون ورود للفظ متصافح .

ونشير هنا أن سلطة حضور طبيعة الثقافة أو المستوى التعليمي و المهني وأثره في استعمال الألفاظ المتصافحة في القصيدة لا يفهم منه عجز الشاعر على توظيف لغة الخطاب اليومي للجماعة التي ينتمي إليها أو المنطقة التي يسكنها كما لا ينظر إليها على أنها معيبة للشاعر في مجارات فحول الشعر القدامى أو الخروج على مستواهم وإنما هو سمة خاصة بالشعراء الشعبيين المعاصرين في المنطقة البيض خاصة و الجزائر عامة

الفئة الثانية

هذه الفئة من الشعراء الشعبيين يقل استعمال الألفاظ المتصافحة في قصائدها الشعرية نسبيا مقارنة بالفئة الأولى من الشعراء ولنا في الجدول التالي مثال عن ذلك :

الشاعر	القصيدة	عدد الأبيات	عدد الألفاظ	عدد للألفاظ المتصافحة	النسبة المئوية للألفاظ المتصافحة	معدل استعمال الألفاظ المتصافحة في البيت الواحد
--------	---------	-------------	-------------	-----------------------	----------------------------------	--

03	%45	191	423	64	العز لي راح	مولاي عبد القادر
02	%34	72	214	30	الوسواس	جلجلي

قلة استعمال الألفاظ المتصافحة عند الفئة الثانية من شعراء منطقة البيض و التي مثلنا لها بشاعرين من أعلام الشعر الشعبي المعاصر في المنطقة - يعود إلى ميل بعض الشعراء إلى استعمال اللغة العامية البسيطة التي تنزل أحيانا إلى الدارجة التي يحاولون الهروب إليها للتخلص من استعمال الألفاظ الأجنبية التي تجري على ألسنتهم بحكم التكوين الثقافي و العلمي و طابع الوظيفة اليومية فالميل إلى استعمال اللغة العامية الدارجة وتطعيمها في بعض الأحيان بألفاظ متفاصحة سهلة ومتداولة، يرمي من خلالها الشاعر إلى ابتكار لغة شعرية تمكنه من التعبير بحرية ،وتبليغ أفكار إلى المتلقي بصورة واضحة وبسيطة.

سلطة اللغة البدوية وألفاظها هي الأخرى جعلت من بعض الشعراء عبيدا لها فولعهم بفحول القصيدة البدوية خاصة تلك التي يتغنى فيها أصحابها بمظاهر الحياة العربية البدوية ،قيدت معجم ألفاظهم في حيزه ضيق غير قابل للتجاوز لاعتقادهم فساد صورة القصيدة وتجريدها من عبق البداوة كلما انساب إلى أبيات القصيدة ألفاظ متفاصحة، ولا يسمح باستعمال الألفاظ المتفاصحة إلا ما توافق مع معجم الألفاظ البدوية المعروفة أو ما أملتته الضرورة الفنية في القصيدة.

هوامش البحث

- ¹ - النقد الأدبي في القرن العشرين، تأليف: جان إيف تارليه، ترجمة: قاسم مقداد دط منشورات وزارة الثقافة، سوريا 1993 ص 281
- ² - الأدب الشعبي العربي (مفهومه ومضمونه) محمود ذهني، دط، دار لإتحاد العربي للطباعة، مصر 1972 ص 81
- ³ - اللغة بين الفرد والمجتمع، تأليف: سيسرسن - ترجمة: عبد الرحمن أيوب، دط، مكتبة الخانجي، مصر، دت ص 214
- ⁴ - المرجع نفسه: ص 214-215
- الحداثة في الشعر العربي المعاصر، محمد حمود، ط1 الشركة العالمية للكتاب لبنان 1996، ص 170
- ⁵ - بناء لغة الشعر، جون كوين، تر: أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، دت ص 11
- ⁶ - ينظر مقدمة المرجع السابق، ص 3
- ⁷ - نظرة حول الشعر الشعبي وتطوره الفني (مقال)، رايح بونار - مجلة آمال، وزارة الاتصال و الثقافة الجزائر عدد 68 سنة 2000 ص 31
- ⁸ - المقتبس من اللهجات العربية و القرآنية، محمد سالم محيسن مؤسسة شباب الجامعة، دط، الإسكندرية، مصر 1986 ص 84
- ينظر أيضا: المزهري في العلوم - جلال الدين السيوطي تحقق - محمد أبو الفضل مصر 1958 ج 1 ص 222 وما بعدها
- ⁹ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹⁰ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹¹ - معجم الصحاح: الرازي، تحقيق: خليل توفيق موسى، ط 18، دار الإرشاد للنشر، حمص، سوريا 2008 ص 51
- ¹² - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، ط 2، دار الكتب المصرية مصر 1952، ج: 1 ص 265
- ¹³ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹⁴ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹⁵ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹⁶ - ينظر لسان العرب ج 42 مادة قلب.
- ¹⁷ - لحن العامة والتطور اللغوي، رمضان عبد التواب، ط 1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1967 ص 48
- ¹⁸ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- ¹⁹ - القصيدة من مدونة مخطوطة لقصائد موثقة بحوزة الباحث.
- * ينظر بعض الباحثين إلى اختزال الصيغ أنه نحت، لكننا نعتقد أن مجموع الألفاظ المستعملة في اللهجة المحلية ينطبق عليها مفهوم الاختزال أكثر مما تنطبق عليها قواعد النحت المعروفة في اللغة .
- ²¹ - الخصائص، ابن جني ج 3 ص 121